العظيم

كلمة الأستاذ ربحى التى ألقاها يوم الاحتفال بالمولد فى المدرسة الشرقية .

أيها السادة :

هذا العالم يزخر بما لا يعد ولا يحصى من الرجال ، ولكن العظماء فيه قليلون ، بحيث يمكن عدهم عداً ، ذلك لأن العظمة معين خلود ، لا يصله كل من يطمع فى وروده ، لأن طريقه شائكة شاقة ، وعرة المسالك ، جمة المهالك ، منافذها مغلقة إلا على من أوتى حزما وعزما وقدرة تامة على مجاهدة النفس ، ومجالدة نزعاتها وأهوائها ، ومن اتصف بأفكار الذات ، وصد رغباتها ، وكان من التضحية والتفانى ذا حظ عظيم ، فمن استطاع ذلك ، ورد المورد الصافى ، فاستقى حتى ارتوى ، فكان عظيما وكان خالداً .

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والاقدام قتال

فليس العظيم إذاً بماله ومنصبه ، ولا بقوته وسطوته ، لأن العظمة التى تعتمد على أسباب هى عرضة للزوال ، لا محالة زائلة بزوال أسبابها .

ولكن العظيم كل العظيم من يعيش ما يعيش عظيما ويقضى عظيما ، عظمة : تكر السنون وتتعاقب القرون ، وهى ماثلة . خالدة ، تكاد لا تشبع جيلا حتى تستقبل آخر ، لتفيض عليه من جلالها عبراً ، وتنثر من آياتها درراً .

وإن العظيم كل العظيم هو ذلك السيد الذى يبيت على الطوى ، ومن وكلت إليه أمورهم يتنعمون بالثروة والغنى وهو الذى تتفتح له أبواب السماء والأرض ، وتتزين له الدنيا بزخرفها ، وتقبل عليه بجمالها لتغريه بالتعلق بها ، فيصد عنها بأنفة واستكبار ويقول : إليك عنى أيتها الغاوية ، فلست ممن تصيدين ولا ممن تغرين وتخدعين فما للزوال كنت ولكن للخلود خلقت .

إن العظيم كل العظيم هو ذلك الذى يحنى العالم أمامه الرؤوس وتراه يجلس بين رهطه وجماعته وهو وهم كالحلقة المفرغة لا يدرى طرفاها فلا يمتاز عليهم إلا بما ينبثق منه من نور لا يملك منع إشعاعه .

إن العظيم كل العظيم هو ذلك الذى يأتمر بأمره رجال يتسابقون إلى تلقى أوامره ، ويتبارون بتنفيذ ما يأمرهم به فلا يجدون فى سبيل ذلك صعباً ولو كان المصير الموت ومع هذا نراه فى مقدمتهم فى كل ما أمرهم به حيث يبدأ هو بتنفيذه فلا يقول ما لا يفعل بل يفعل ما يقول .

إن العظيم كل العظيم هو ذلك الذى يشقى لشقاء جماعته ويستريح براحتهم ، ويسعده صلاحهم ويحزنه فسادهم ، فلا يقر له قرار ولا يهدأ له بال ، حتى يقوم أودهم ، ولا يبالى بما يلقى فى سبيل ذلك من عنت :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه وصمم تصميم السريحى ذى الأثر

يسير فى طريقه جاهداً ، فلا تعده عقبات ، ولا تثنيه صعاب ، ولا يجد اليأس إلى قلبه سبيلا حتى يرى ما اراد جميلا .

إن العظيم كل العظيم الذى رأى من مواهب قومه ما يبشر بأنهم لم يكونوا لما هم عليه : من فرقة وتخالف وتحاسد وتباغض ، فهداهم إلى ما فى نفوسهم من نخوة وشهامة ، وبطولة ورجولة ، وذكاء ومضاء واستعداد عظيم لحمل رسالة علم وصلاح وعمران وفلاح ، إلى العالم : العالم الذى كان يتخبط فى مهاوى الشقاء ومطارح الفناء ، تنزل به الآلام والأرزاء ، فيقفون أمام هدايته حائرين بين مصدقين ومكذبين ، وما هى إلا عشية وضحاها ، حتى كانوا يسيرون فى الطريق التى عبدها لهم ، فاذا راياتهم خفاقة على أسوار الصين العتيدة ، وإذا هم يهددون أمواج المحيط الأطلسى ، وإذا الأمم التى طغت عليهم وبغت ، إذا بها ترتد عنهم خائبة ، ثم تستظل براياتهم ، ثم تهتدى بهديهم ، فتذوق سعادتهم ، وتنعم بعدلهم وأمنهم وتتحلى بعلمهم ، وتتهذب بثقافة قرآنهم .

إن العظيم كل العظيم هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم :

أشهد اللهم أن المصطفى عم الأكوان نورا وهدى
أنزل التوحيد قلباً شئته صل يارب عليه سرمداً

أشهد اللهم أن محمداً عظيم ، وأن رجال محمد عظام ، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين » .

أيها الإخوان :

إن محمداً ولد عظيما وعاش عظيما ومات عظيما . وإن عظمته لمائة خالدة تتجلى علينا من عليائها ، فتنير لنا السبل فى الليالى الحالكات العابسات ، فتبدد الظلمات وترد عنا